

تجربة سورية الرائدة في تعريب العلوم في التعليم العالي

الدكتور عبد الله واثق شهيد

تطور التجربة السورية في تعريب التعليم العالي بعد الاستقلال^(١):

في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٤٦ افتتحت الجامعة السورية في دمشق كليتي العلوم والآداب والمعهد العالي للمعلمين، وافتتحت في حلب كلية الهندسة المدنية التي اتخذت لها مقرًا إحدى الشكنات التي كان يشغلها الجيش الفرنسي في المدينة، كما اتخذت من بعض مباني الشكنة الحميدية، إحدى ثكنات الجيش العثماني فالجيش الفرنسي في دمشق، مقرًا لكليتي العلوم والآداب المحدثتين، ونقلت إليها معهد الحقوق العربي (كلية الحقوق)، وأحلت محله في بنائه الجميل على ضفاف بردى المعهد العالي للمعلمين^(٢).

وجهت الجمهورية العربية السورية منذ أيامها الأولى بعد الاستقلال جهودها إلى تزويد المدارس الثانوية (والإعدادية) بالمدرسين الأكفاء لسد حاجة تلك المدارس المتسارعة النمو، فأنشأت المعهد العالي للمعلمين، ونيط عليه توجيه

(1) نشر الجزء الأول من هذا البحث في الصفحات ٤٦٧-٤٩٠ من المجلد ٧٩ من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، وعرضت فيه التجربة السورية في تعريب التعليم العالي منذ بداياته الأولى حتى نهاية عهد الانتداب.

(2) استمر إصلاح وترميم الشكنة الحميدية عدة سنوات ونقل إليها تدريجيًا كلية الطب، وكانت الصيدلة جزءًا منها، والمعهد العالي للمعلمين، فحلت وزارة التربية محله في مباني معهد الحقوق العربي، ثم آلت هذه المباني، في أيامنا هذه إلى وزارة السياحة فأصبحت مقرًا لها.

كليتي العلوم والآداب لتحقيق هذا الهدف. فأوفد المعهد العالي إليهما طلابه واختص هو بتدريس أولئك الطلاب المواد المتفرعة من علم التربية وأصول التدريس. وهكذا استجد في التعليم العالي أغلب ما له علاقة بالعلوم الإنسانية ، في كل من كلية الآداب والمعهد العالي للمعلمين. واستجد فيه، في كلية العلوم، العلوم الأساسية كالأحياء والفيزياء والكيمياء والنبات وعلم الحياة الحيوانية والجيولوجيا. كما استجد فيه من العلوم التطبيقية، في كلية الهندسة بحلب، كل ما يرتبط منها بالهندسة المدنية وهندسة العمارة التي كانت تتفرع منها.

جرى تعريب العلوم الإنسانية في التعليم، بيسر في سورية وفي كثير من الأقطار العربية، للأسباب التي أتينا على ذكرها من قبل^(١)، كما عريت في غير التعليم في أغلب الأقطار العربية. لذلك قصرنا الدراسة على تعريب العلوم في التعليم العالي: العلوم الأساسية والعلوم التطبيقية، والتقانة (التكنولوجيا) ضمناً.

لم يلاق تعريب العلوم في كليتي العلوم والهندسة صعوبات تذكر، فمبدأ التعريب راسخ في نفوس المثقفين، وهذه طفرة ثانية من الشعور الفياض بالعزة والكرامة والقدرة على العطاء وأكبت إعلان الاستقلال. ونجاح تجربة تعريب العلوم في المعهد الطبي العربي ذلت الصعوبات، وهيات لأعضاء هيئة التدريس في كلية العلوم بدايات مشجعة في مصطلحات الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الحيوية.

كانت أهم مشكلات التعريب المطروحة في كلية العلوم هي مشكلات الرموز الرياضية والكيميائية، وكتابة المعادلات. وكان الدكتور صلاح الدين الكواكبي أستاذ

(1) مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد ٧٥، الصفحة ٤٧٦.

الكيمياء في المعهد الطبي العربي قد قام بمحاولة (تعريب) كتابة المعادلات الكيميائية فكتب المعادلات من اليمين إلى اليسار برموز لاتينية للعناصر الكيميائية وعربية لغيرها، أما التفاعلات الكيميائية فأبقاها من اليسار إلى اليمين بحروف لاتينية^(١). وتبنى الأستاذ نادر النابلسي مؤسس قسم الرياضيات في كلية العلوم مبدأ استبدال رموز عربية بأغلب الرموز اللاتينية وكتابة المعادلات من اليمين إلى اليسار. ورأى، على سبيل المثال، أن الاحتفاظ بإشارة التكامل (أو رمزه): \int بعد قلبها لتنسجم مع الكتابة من اليمين إلى اليسار: هو كقلب الغربيين إشارة الجذر العربية لتنسجم مع الكتابة من اليسار إلى اليمين إذ تصبح: $\sqrt{\quad}$. ويمثل هذا التوجه، وعلى سبيل المثال أيضاً، استبدال إشارتي التفاضل والتفاضل الجزئي: نفا (تقرأ تفا وتكتب دون تنقيط) و ∂ برمزيهما الغربيين d و ∂ وتبنى أساتذة الفيزياء أسلوب الأستاذ النابلسي في الحالات البسيطة. إلا أن الرأي استقر فيما بعد على عدم استحداث رموز علمية جديدة، لأن الرموز المستعملة أصبحت عالمية، وتتطور في اتجاه التحرر من الارتباط باليونانية واللاتينية. وهكذا جرت العودة تدريجياً عما تنهاه الأستاذ النابلسي، واقتضى ذلك أيضاً كتابة المعادلات من اليسار إلى اليمين، والتحق بهذا التوجه فيما بعد أساتذة قسم الرياضيات ببطء. واستعمل أساتذة الكيمياء الرموز الغربية وكتبوا معادلاتهم أيضاً من اليسار إلى اليمين. واتّبعت كلية الهندسة في حلب ما آلت إليه جهود التعريب

(1) مجلة المعهد الطبي العربي - المجلد العاشر الصفحات ٣٦٢-٣٦٥ و٦١٧-٦٢٤
ومن المجلد الحادي عشر، الصفحات ٥٧-٦٤ و ١٢١-١٢٨، فالصفحات ٢٤٨-
٢٥٥ منه.

في دمشق في هذا المجال. وهذا كل ما جدّ في أسلوب تعريب العلوم في التعليم العالي.

توسع التعليم الجامعي وتعددت فروع العلوم التطبيقية فيه منذ مطلع الستينيات من القرن الماضي. وأحدثت كليات للهندسة الكهربائية والميكانيكية والزراعية والبتول والطب البيطري... وكان التعليم، منذ الشروع فيه، في كل كلية وفي كل معهد محدث جامعي أو متوسط، باللغة العربية وتابع بها وتطور، ولا نقول عربّ التعليم في كل منها، فلغة التعليم ترسخت، من قبل، عربية في كل اختصاص وعلى جميع المستويات، ولا يعاني هذا التعليم المشكلات في لغته.

ولقد كان توحيد المصطلحات منذ بداية تعريب التعليم العالي، كما ذكرنا^(١) مطلبًا مهمًا من مطالب أعضاء هيئات التدريس في كليات الطب ومعاهده والأطباء في المستشفيات والجمعيات الطبية العربية، في العراق وسورية ولبنان ومصر. كانوا جميعًا يدعون إلى بناء لغة طبية عربية واحدة «يربط الأطباء بها بلاد الناطقين بالضاد في المشرق والمغرب برياط وثيق آخر هو لغة طبية عربية واحدة»^(٢). ودعا المعهد الطبي العربي إلى تأليف لجنة من أعضاء الهيئة التعليمية فيه للنظر في المصطلحات التي وضعوها وانتقاء الأصلح والتزامهم جميعًا به^(٣). ولا يزال هذا المطلب هدف جميع الهيئات العلمية في الوطن العربي. وهو في سورية من مهام مجلس التعليم العالي، الذي أنشأ لتحقيقه لجنة تنظر في مصطلحات الكتب الجامعية المعدّة للنشر بقصد توحيدها وإقرار الجديد منها. وأنشأت المنظمة العربية

(1) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - المجلد ٧٩، الصفحتان ٤٨٩ و ٤٩٠.

(2) مجلة المعهد الطبي العربي، المجلد العاشر، الصفحة ١٧٧.

(3) مجلة المعهد الطبي العربي المجلد الثامن عشر ص ٤٨.

للتربية والثقافة والعلوم مركز تنسيق التعريب ليحقق هذا المطلب على مستوى الوطن العربي كله.

ولئن كانت مشكلة توحيد المصطلحات لا تزال قائمة فإنها لا تُعدُّ اليوم عائقًا. كانت بالأمس موضوعًا هامًا للنقاش، إذ كانت المصطلحات في مرحلة الوضع، وكان على كل عضوٍ من أعضاء هيئة التدريس أن يبذل جهودًا مضنيةً لوضع مصطلحاته، وكان جلهم يمتلك رصيدًا طيبًا من المعرفة الرصينة باللغة العربية، أو ما يمكنه على الأقل من تكوين ذلك الرصيد تدريجيًا. ولذلك لم يكن يقبل المدرس بسهولة مصطلحات اقترحها غيره. أما اليوم فقد أصبحت المعاجم الحديثة للمصطلحات متوافرة في الأسواق، فقد أصدرت منظمة الصحة العالمية لشرق المتوسط، بالتعاون مع اتحاد الأطباء العرب واتحاد منظمات أطباء الأسنان العرب، المعجم الطبي الموحد في عام ١٩٧٣ وهو لا يزال في تطور مستمر إلى يومنا هذا، كما أصدرت حديثًا معجم طب الأسنان الموحد. ونقل معجم مكروهيل إلى العربية ما بين عامي ١٩٧٨ و ١٩٨٨ باسم «معجم مصطلحات العلم والتكنولوجيا»، أصدره معهد الإنماء العربي باللغتين العربية والإنكليزية ونشره في أربعة مجلدات تضم زهاء ٣٧٠٠ صفحة من القطع الكبير، واشتمل على نحو مئة ألف مصطلحٍ معرّف في أكثر من مئة تخصص. وأصدر اتحاد المهندسين العرب «المعجم الموحد الشامل للمصطلحات الفنية للهندسة والتكنولوجيا والعلوم»، فنشرته في عام ١٩٨٦ مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ويرو عدد صفحاته على ٥٥٠٠ صفحة. وأصدر مكتب تنسيق التعريب أكثر من ثلاثين معجمًا موحدًا مختصًا. وأصدرت هيئة الطاقة الذرية السورية «معجم المصطلحات العلمية والتقنية»، وتعمل على تطويره وتحديثه دوريًا. ووضعت لجنة من المجمعين

الجامعيّين الدكتور عبد الرزاق قدورة والأستاذ سعيد الأفغاني، والأستاذ مأمون الكناي من قسم الفيزياء بجامعة دمشق، وثلاثة من مهندسي وزارة الدفاع، معجم الكهرباء والإلكترونيات وهو معجم عربي فرنسي إنكليزي روسي، أصدرته وزارة الدفاع في سورية في عام ١٩٧٥. ونشير أخيراً إلى «معجم الرياضيات المعاصرة» الذي وضعه ثلاثة من أساتذة الرياضيات في جامعة دمشق هم الدكتور صلاح أحمد والدكتور موفق دعبول والدكتورة إلهام حمصي، ونشرته مؤسسة الرسالة في عام ١٩٨٣...

شارك في ترجمة هذه المعاجم وصنعها مجموعات من العلماء والفنيين العرب ومن أعضاء مجامع اللغة العربية، وكان نصيب الجامعيين السوريين فيها كبيراً. ويزداد الإقبال بشدة، يوماً بعد يوم، على صنع المعجمات العلمية المختصة في فروع العلم المختلفة، أساسيةً وتطبيقيةً وتقانيةً وإنسانيةً، وتلاقي رواجاً كبيراً في دور النشر وفي الأسواق.

هذه المعجمات وما تشتمل عليه من مصطلحات، ستثري ذخيرة المختص لما يصلح من المقابلات العربية لكل لفظ علمي أجنبي في فرعه العلمي، وسييساعده ذلك، بالتأمل والتدقيق والمناقشة، على تكوين رصيد طيب من مفردات المعاني والمصطلحات العربية، ويدفع مسيرة تعريب العلوم نحو الخيار الأمثل الموحد. ألم يتطور كثير من مصطلحات بناء النهضة العربية الإسلامية الأولى، كانتقالهم من أرثماطيقى إلى الحساب، ومن الجومطريا إلى الهندسة... وهل حال عدم توحيد المصطلحات دون تعريب التعليم العالي كله في الجامعات السورية؟ ألم تخرّج جامعاتنا عشرات الآلاف من المختصين، الذين تابع كثير منهم اكتساب المعرفة والخبرة في الوطن وفي الخارج؟ ألم يمنحهم تعدد المصطلحات فهمًا أدقّ لما يقرؤون

وخبرةً في التمييز وقدرةً أفضل على التعبير؟ أليس في الإقبال بشدةٍ على صنع المعجمات المختصة ونشرها ورواجها في الأسواق ما يدل على تساؤل أهمية مشكلات توحيد المصطلحات العلمية في تعليم العلوم في التعليم العالي؟ ومع ذلك فإن وزارة التعليم العالي في سورية كلفت المجمع توحيد المصطلحات العلمية في جامعاتها ومعاهدها. وشرع المجمع في التنفيذ منذ عامين، وقرر، بالاتفاق مع الوزارة، أن يبدأ بتوحيد مصطلحات العلوم الأساسية لأسباب أشير إليها في التقرير العام الشامل حول أعمال المجمع السنوية^(١)، وأحيل المشروع على اللجنتين المختصتين في المجمع. وقد أنجزت المرحلة الأولى من توحيد مصطلحات الفيزياء، وستناقش حصيلتها في المجمع بدمشق، مع ممثلي أقسام الفيزياء في الجامعات. إن تعدد المصطلحات العربية لمقابل أجنبي واحد أثرى نقاش أعضاء اللجنة المختصة في المجمع وخبرائها وحسّن نتائج عملهم. وإن دراسة تحليلية لنتائج المشروع، ولو في اختصاص واحد كالفيزياء، ستكون جدّ مفيدةٍ لدى تقرير مدى الحاجة إلى توحيد المصطلحات، وبخاصة بعد الإفادة من أساليب المصطلحية والتنميط.

وهكذا فقد أكدت الجامعات السورية في مسيرتها التعليمية ما هو متعارف عليه علمياً، وثابت علمياً، أكدت أن التعليم باللغة الوطنية، بلغتنا العربية في الوطن العربي، أفدر على بناء أجيالنا علمياً وثقافياً. ولقد كانت محاولات الانتقال من قدرة اللغة العربية على الوفاء بحاجات تعليم العلوم كثيرةً، ولا تزال تتجدد بين حين وآخر، وتجد لها سنداً، في مواقف المتقاعسين عن التعريب، كلما

(1) الدكتور عبد الله واثق شهيد: تقرير عام شامل حول أعمال المجمع السنوية - مجلة

اشتدت مطالبة مجتمعاتهم به، أو كلما توجهنا إلى طلب العون من مؤسسات دولية، ولكنها ما تكاد تظهر وكأنها نجحت في تكوين خرقٍ حتى تنهار مخفقةً إخفاقاً مريعاً . وفي منتصف الستينيات من القرن الماضي، أوصى تقرير لجنة من الخبراء الأجانب، حول إنشاء كلية للطب في حلب، باتخاذ اللغة الإنكليزية لغةً للتعليم فيها . ولسوء طالع هؤلاء الخبراء، فإن تعليم الطب بخاصة، باللغة العربية طوال نصف قرن قد أثبت جدواه ورسخ في الأذهان واستقر في نفوس الأساتذة والطلاب، فأثار تقريرهم سخط جميع المثقفين. ونشرت مجلة المعرفة السورية في تلك الأيام سلسلة من المقالات بعنوان «لغة العلوم»^(١) شارك في كتابتها عدد من أساتذة الجامعات السورية والمفكرين العرب، كان من بينهم الأساتذة بشير العظمة، وعبد الرزاق قدورة وعبد السلام العجيلي، ومحمد أديب السلاوي وعبد الله كتون وفؤاد الشايب.... والغريب في أمر ذلك التقرير، أن الدولة الفرنسية أقرت في عهد الانتداب، بفضل التعليم باللغة الوطنية، بلغتنا العربية، وباركه باسمها مندوبها السيد بونور، في حفل افتتاح السنة الجامعية في عام ١٩٣١، إذ قال:

^(٢) «... فإن من يزعمون أن اللغة العربية غير صالحة للتعبير عن مصطلحات العلم الحاضر هم على خطأ مبین، فالتاريخ يثبت أن لغة الضاد كسائر اللغات الأخرى غنية باشتقاقاتها وكافية بكثرة تراكيبها للتعبير عن الأفكار الجديدة... فظلوا أبداً محافظين على هذه الأداة البديعة التي نحن مدينون لها بكثير من الأعمال الباهرة

(١) سلسلة مقالات نشرتها مجلة المعرفة بدءاً من عددها ذي الرقم ٤٧ مع بداية عام

١٩٦٦.

(٢) افتتاح الدروس ودار الكتب، خطاب مسيو بونور مدير المعارف العام في المفوضية العليا

- مجلة المعهد العلمي العربي، المجلد الثامن (عام ١٩٣١)، الصفحات ٤٥-٥٠.

وبعد من الأشكال الجميلة التي تجلّى بها الفكر البشري... إنني أهنئ العرب وأتمنى ألاّ يضيّعوا هذا الاحترام المقدس لغتهم، لأن من يدافع عن لغته، يدافع عن أصله وعن حقه المقبل وعن كيانه وعن لحمه ودمه...)). ومهما تكن غاية الحكومة الفرنسية، في تلك الأيام، من تشجيع تعريب التعليم العالي والتي أشرنا إليها من قبل^(١)، فإنها كلمة حق. وها هو أيضاً الأستاذ عبد الله كنون يحدثنا عن نتائج مشابهة في المغرب، فيقول «... استقدمت الحكومة المغربية لجنة من خبراء البنك الدولي للإنشاء والتعمير بقصد الاستشارة، فكان رأيها أن ازدواجية لغة التعليم هي مما يستنزف مالية المغرب فضلاً عن كونها السبب في هبوط مستوى التعليم، وأوصت باعتماد لغة البلاد وجعلها اللغة الأساسية للتعليم»^(٢). وكلمة الحق هنا أيضاً قد تكون قيلت لتساعد على طرد اللغة الفرنسية. أما لجنة خبراء كلية الطب في حلب، فقد ذهبت إلى غايتها الخبيثة مباشرة، فأوصت صراحةً بالتعليم باللغة الإنكليزية خلافاً للمنطق والنتائج العلمية. واللغة العربية بعد هذا كله، قد برهنت بما حققته، على كفاءتها لتعليم العلوم كلها وعلى جميع المستويات. لقد قارن الطبيب زهير أحمد السباعي، عضو مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية في دراسة له بعنوان: «هل تدريس الطب بالعربية يخرج لنا أطباء أضعف»^(٣)، نتائج الأطباء السوريين الذين تعلموا الطب بالعربية بنتائج

(١) الجزء الأول من البحث، الصفحة ٤٨٨ من المجلد ٧٩.

(٢) عبد الله كنون: لغة العلم - مجلة المعرفة (١٩٦٦)، الحلقة الرابعة، الصفحة ٩.

(٣) زهير أحمد السباعي: هل تدريس الطب بالعربية يخرج لنا أطباء أضعف؟! - مجلة المعرفة (السعودية) العدد ٦٥ (شعبان ١٤٢١هـ) (الصفحة ٣٠). وأنا مدين للأستاذ =

الآخرين، في اختبارات المجلس التعليمي للأطباء الأجانب، وهو اختبار تعقده الولايات المتحدة الأمريكية عدة مرات في كل عام، ويتقدم إليه في كل مرة نحو عشرة آلاف طبيب من مختلف أنحاء العالم. وذكر الدكتور السباعي أن من يجتاز الاختبار يحق له العمل أو الدراسة الطبية العليا في الولايات المتحدة الأمريكية. وتضمنت الدراسة جدولاً بمعدل علامات نتائج اختبار الطلاب الأطباء السوريين المتقدمين، ومعدل العلامات الإجمالي للمتقدمين؛ ويتضح من ذلك الجدول أن معدل علامات السوريين أعلى قليلاً من المعدل الإجمالي. وينبئ الدكتور السباعي في دراسته القارئ إلى «أن الاختبار يعقد باللغة الإنكليزية، أي أن تعلم الطب باللغة العربية لم يكن عائقاً أمام الأطباء السوريين يحول دون أدائهم للاختبار واحتيازهم له بنجاح». وفي ذلك برهان على نجاح تعليم العلوم باللغة العربية مستخلص من مقارنة نتائجه بنتائج الآخرين.

لقد أصبح التعليم باللغة العربية في جميع مراحلها هدفاً ثابتاً لا محيد عنه، كما أخفقت جميع الأساليب لحرفنا عنه، حتى إن تلك الأساليب المغرضة ساهمت، كرد فعلٍ إلى حدٍّ ما، في إهمال اللغات الأجنبية التي هي نوافذنا للتواصل مع التقدم العلمي العالمي.

وقد تكون معالجة مشكلات انخفاض مستوى معارف الطلاب بلغة أجنبية أكثر إلحاحاً في أيامنا هذه من النظر في توحيد المصطلحات. وهذه المشكلات ليست مطروحة في كليات الطب خاصة، ولا تكاد تكون مطروحة في كليات العلوم التطبيقية عامة. ذلك لأن هذه الكليات تعدّ طلابها لممارسة مهنتهم الحرة،

=حسن الحموي باطلاعي على هذه الدراسة وعلى جزء من دراسة أخرى مفيدة في هذا المجال، فإليه أزجي الشكر.

ويعلم هؤلاء أن مدى ما يمكن أن يتحقق لهم في مهنتهم من نجاح مرتبط بمدى اكتسابهم خبراتٍ فيها، ومدى مقدرتهم على تطوير تلك الخبرات مع الزمن، وأن هذا لا يتحقق إلا ببلوغ مستوى مقبول من معرفة لغةٍ أجنبيةٍ أو أكثر. هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى فإن طلاب هذه الكليات، هم وفق قواعد قبول الطلاب في التعليم العالي، الأوفر حظاً وزاداً من التعليم الثانوي - ومن ضمنه اللغة الأجنبية - بين الذين أنهموه بنجاح وتوجهوا إلى التعليم العالي. أما كليات العلوم الأساسية وبعض كليات العلوم التطبيقية كالزراعة، فلا بد للحفاظ على مستوى مقبول للتعليم فيها من معالجة مشكلات انخفاض مستوى معارف طلابها بلغة أجنبية.

لقد كان الطلاب يتلقون في كلية العلوم دراسة مادةٍ واحدة فقط بلغة أجنبية في كل اختصاص وفي كل سنة من سنوات دراستهم الأربع، وكان على الطالب النجاح في امتحاناتها. كما كان على كل طالب في سنته الأخيرة اختيار موضوع - يوافق عليه أستاذ مشرف - يكتب فيه رسالة علمية، ولا يمنح الطالب إجازته من الكلية إلا بعد قبول الأستاذ المشرف عمل الطالب في رسالته العلمية. إن نجاح الطالب في سنوات الدراسة كلها في المواد التي درّست بلغة أجنبية، وفي كتابة الرسالة العلمية التي يعود في كتابتها إلى مراجع أجنبية، ضمان لامتلاك الطالب رصيماً في لغةٍ أجنبيةٍ يمكنه من الاطلاع على التقدم العلمي في اختصاصه ومتابعة التعلم بعد تخرجه. وواقع الحال، أن عدد أعضاء هيئة التدريس في الكليات المحدثّة (في عام ١٩٤٦)، كان في العقدين الأولين من عمرها قليلاً جداً وكانت أعباء كل منهم كبيرة، لذلك كان التعاون بين الطلاب وأساتذتهم كبيراً. وكثيراً ما كان الطلاب يقومون بترجمة فصول من

كتب متعددة يوجههم إليها الأستاذ، ثم يقوم بتنقيح ما ترجموه في أممية يقدمها لهم. وقد أدى هذا التعاون إلى تحسين معارف الطلاب في لغة أجنبية وفي مسالك التعريب، وإلى بناء شخصياتهم العلمية وتعزيز ثقتهم بأنفسهم، وبذلك تابعت مسيرة تعريب تعليم العلوم في الجامعات تقدّمها.

ولقد أدى ازدياد أعداد الطلاب بشدة في كليات العلوم (وفي بعض كليات العلوم التطبيقية) إلى ازدياد ميل مستوى معارفهم في لغة أجنبية إلى الانخفاض، فهم أقل حظاً وزاداً من التعليم الثانوي من زملائهم طلاب الطب وبعض كليات العلوم التطبيقية. وأصبح تدريس مادة بلغة أجنبية في كل سنة من سنوات الدراسة، خالياً من الفائدة التي كانت ترجى، إذ تحوّل تدريس مادة بلغة أجنبية، إلى تدريس نصوص مترجمة، واقتصر الطالب في كتابة رسالته على المراجع العربية لعجزه عن الاستعانة بالمراجع الأجنبية، وأدى هذا كله إلى انخفاض سريع في عدد الخريجين القادرين على متابعة التعلم بعد التخرج. إن هذا التراجع في مردود التعليم العالي في هذه الكليات، لا علاقة له بلغة التعليم أي باللغة العربية، ولكنه نتيجة مُفجعة لانهيار تعليم اللغات الأجنبية وغيرها في التعليم الثانوي، ولتردي مستويات تعليم اللغة العربية في جميع مراحل التعليم. وليس من أهداف هذه الدراسة، الانتقال إلى معالجة واقع تعليم اللغات الأجنبية في سورية وفي بعض البلدان العربية على الأقل، ولكن الإشارة إلى بعض ما سببه ضعفها، تبقى هامة وضرورية، وبها نكتفي.

هذا الواقع أدى إلى توقف تطوّر تعريب التعليم العالي وتطوره. إن محور التطور والتطوير لن يكون توحيد المصطلحات، فتوحيدها آتٍ ولا يتوقف عليه التعريب كما ذكرنا. إن محور التطوير والتطور هو وضع المصطلح: منهجيته وأساليبه. ذلك

لأن الجديد من ألفاظ الحضارة المعاصرة والمصطلحات العلمية هو في تزايد مستمر متسارع. والثورات العلمية التي تفجرت بالأمس في الاتصالات والمعلوماتية والإدارة والمواد الجديدة والبيولوجيا وفي كثير من العلوم الإنسانية، ولا ندري في أي اختصاص غدًا ستنتفجر، تقذف يومًا بكمّ كبيرٍ من المصطلحات العلمية بلغاتٍ أجنبية عديدة أهمها الإنكليزية في هذه الأيام، وتتراكم أكادسًا على طريق التعريب، لا نكاد نمس منها ما له علاقة بالتعليم. إن استكمال تعريب التعليم العالي والبحث العلمي يقتضي منا وضع المصطلحات العربية المقابلة لما يتراكم في تلك الأكادس من مصطلحات أجنبية، بوتيرةٍ من رتبةٍ وتيرةٍ ما ينهال علينا منها يوميًا. وليس بخافٍ علينا جميعًا أن هذا المطلب سيبقى بعيد المنال إذا لم نَبْزِ أو نكتشف المنهجية التي تصلح في هذه الحال لوضع المصطلح بيسر. وعلينا، إذا ما تم لنا ذلك، أن نبتكر الأساليب المناسبة لتطبيقها، وأن ننمي الوعي اللغوي في أوساط الطلاب والباحثين، أو لنقل في بيئة التعليم العالي والبحث العلمي على الأقل، إذ لن تتوفر الفائدة المرجوة من المنهجية من دون تنميته في تلك البيئة.

إن تعريب التعليم، لم يعد مطلبًا قوميًا للحفاظ على الهوية، أو ترويضًا للحصول على مردود تعليمي أفضل فقط، فقد برهنت بحوث التنمية ومنها التنمية البشرية، على أن للتعليم باللغة الوطنية عائدًا اقتصاديًا لا تقل جدواه عن عائد أي نشاط اقتصادي. ألم يشر إلى ذلك تقرير لجنة خبراء البنك الدولي في المغرب منذ نصف قرن تقريبًا، كما حدّثنا الأستاذ عبد الله كنون ودكّرنا به قبل قليل ؟!^(١) ألم تتركز دراسات الدكتور مراياقي، عن التنمية

(1) عبد الله كنون: لغة العلم - مجلة المعرفة (١٩٦٦)، الحلقة الرابعة، الصفحة ٩ و

الصفحة ٨ من هذه الدراسة.

البشرية ولا تزال، على أهمية دور اللغة الأم في التعليم وعلى لفت الانتباه بإلحاح إلى دورها المتنامي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية^(١)؟ لهذه الأسباب مجتمعةً ولغيرها، التي منها بخاصة الحاجة الملحة إلى أطر قادرة على ترسيخ قواعد البحث العلمي، أنشئ «المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا» في أواخر السبعينيات من القرن الماضي (صدر قانون إحداثه في عام ١٩٨٣) لإحداث طفرة جديدة في تعريب التعليم العالي، ولإعداد تلك الأطر القيادية في مجالات البحث العلمي. وكانت تنمية الوعي اللغوي في بيئة التعليم العالي والبحث العلمي، من بين الأسس التي استهدفت في إنشائه، فنص نظامه على إحداث وحدة لبحوث اللغة العربية، كما اشترط ضرورة انتقاء طلابه من أرفع الفئات مستوى من خريجي الفرع العلمي في التعليم الثانوي، وخصصت السنة الدراسية الأولى لرفع مستوى معارف الطلاب، في لغتين أجنبيتين هما الفرنسية والإنكليزية، وفي الرياضيات والفيزياء، لسد الثغرة التي أشرنا إليها في انخفاض مستوى معارف خريجي التعليم الثانوي. ولخصت أهداف المعهد المعلنة، في إعداد الرواد من المهندسين في مجالات العلم والتقانة (التكنولوجيا). وقد حقق المعهد أهدافه بسرعة، وتفوق خريجوه في الوطن وفي البلدان الأجنبية، في جميع المجالات، التي منها بحوث اللغة العربية. لقد قام المعهد بدراسات لسانية هامة، في وحدة صغيرة لبحوث اللغة العربية، أشرف عليها الدكتور محمد مراياتي وكان

(١) الدكتور محمد مراياتي: عزوف الدول العربية عن تعليم العلوم والتكنولوجيا باللغة العربية يؤثر في نموها الاقتصادي والاجتماعي - المؤتمر السنوي الرابع لمجمع اللغة العربية بدمشق: اللغة العربية والمجتمع، ١٤-١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) من عام

أعضاؤها يحيى ميرعلم وحسان الطيان ومروان البواب. وقد حصل ميرعلم والطيان على الدكتوراه من جامعة دمشق في أثناء عملهما في هذه الوحدة. قامت الوحدة ببحوث في اللسانيات العربية والصوتيات، وأجرى الباحثون فيها دراسات إحصائية هامة على الحروف وتواترها وتناورها، وطبقوا دراساتهم تلك على التعمية عند العرب، فنشرت في ثلاثة أجزاء بعنوان: علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب، نُشر الأولان منهما بالتعاون بين المعهد ومجمع اللغة العربية بدمشق، ونشرت لهم مكتبة لبنان، في عام ١٩٩٦، «إحصاء الأفعال العربية في المعجم الحاسوبي».

أما خريجو المعهد من المهندسين، فقد تابعوا بحوثهم في مجالات مختلفة من مجالات اللغة العربية وأتقنوا تطبيقات المعلوماتية في تلك المجالات، فشارك بعضهم في مؤتمرات المجمع وندواته كالدكتور عماد صابوني، وشارك آخرون في بحوث تيسير تعليم اللغة العربية كالدكتورة غيداء رداوي... وتوجه بعض آخر إلى مشروع الذخيرة اللغوية كالأستاذ مروان البواب من وحدة بحوث اللغة العربية في المعهد والدكتورة غيداء رداوي... ونهضوا جميعاً مع قلة من زملائهم الجامعيين بتعليم المعلوماتية في الجامعات السورية معربةً، وسيساهم هؤلاء في تطوير منهجية وضع المصطلح التي يعد المجمع لتطويرها العدة، وسيكون لهم في المجمع من الأثر الطيب في دعمه وتطويره، ما كان لأعضاء هيئة التدريس في المعهد الطبي العربي في القرن الماضي، من طيب الأثر في تطوير العمل فيه.

إن المنهج المتوارث في وضع المصطلح هو من صنع عصر النهضة العربية الإسلامية واستخلص من تراثها. لقد كان وافيًا بأغراض وضع المصطلح، في عصر كانت المصطلحات العلمية الأجنبية محدودة، وما إن نقلت إلى العربية

حتى أصبح الإبداع والابتكار وازدهار الحضارة والتقدم حكراً على اللغة العربية، بما ينشر ومنها ينقل إلى اللغات الأخرى. أما اليوم فقد تغير الحال بل انعكس. هذا المنهج، الذي لا يتقن استعماله إلا قلة من العلميين، ولا يدرك حدود تطبيقه في العلم غيرهم، هو اليوم بحاجة قصوى إلى التطوير.

إن إثراء أساليب وضع المصطلح وبناء أنجع منهجية في حالنا هذه، يتطلب تكثيف بحثنا في مجالات المصطلحية والمعجمية والتقييس، وفي تطبيقات المعلوماتية فيها. وسيكون على المجمع التخطيط لإعداد العاملين الشباب الجدد، للقيام بهذه المهمة. إنهم من خريجي الجامعات الذين حصلوا فيها بعد الإجازة على درجة أعلى في علوم اللغة العربية أو في المعلوماتية، ومنهم تتألف الهيئة الفنية التي أحدثت في المجمع، على غرار نظيرتها في الجامعات، ومن المستحسن أن يجري إعدادهم بالتعاون مع الجامعات وأعضاء هيئات التدريس فيها. وسيكون في تطبيق بحوث المصطلحية على ما وضع السلف من المصطلحات، وبخاصة في عصر النهضة العربية الإسلامية، فائدة أكيدة. كما سيكون مثلها لإعادة النظر في تبويب معجمات المعاني تبويماً يستوحى من أوليات خدمة أغراض المجمع في وضع المصطلح، كتخصيص فصل للحركة، وثانٍ للأصوات، وثالث للألوان ورابع للزمن... وستحقق المساهمة في تنفيذ مشروع الذخيرة اللغوية، والعمل على تطوير أساليب تنفيذه فوائده عديدة، منها تيسير وضع المعجم التاريخي، والتعجيل في توسيع ذخيرة المصطلحات العلمية وإثراء معجمات المعاني في تبويبها المقترح...

لقد هُيئت للمجمع أهم الشروط التي تمكنه من قيادة تطوير تعريب التعليم العالي في الوطن، كما قادها إبان إحداثه. إذ طورت بنيته بالقانون رقم ٣٨ لعام

٢٠٠١ على الوجه الذي اقترحه المجمع على الدولة، فزاد عدد أعضائه بالقدر الذي يمكنه من تحسين تمثيل فروع العلم والتقانة في عضويته. وشرع المجمع في تنفيذ مشروع توحيد المصطلحات العلمية في الجامعات السورية، وهو من أهم المشروعات التي كان يطمح إلى تنفيذها. وبرزت في أثناء التنفيذ صعوبات كان لا بد من تذليلها كتنظيم عمل الخبراء في اللجان، وضرورة رسم سياسة لخطط العمل العلمي السنوي والبعيد المدى حرصاً على الطاقات البشرية والمالية من الهدر والتشتت. وانتهى الأمر إلى وضع مشروع لتطوير أساليب العمل في المجمع، أقره مجلسه في خريف عام ٢٠٠٤^(١) وقد حدد المشروع محاور العمل فكان أهمها:

- توحيد المصطلحات العلمية بين الجامعات السورية.
- إثراء منهجيات وأساليب وضع المصطلح ببحوث في المصطلحية والمعجمية وما يرتبط بهما أو يتفرع منهما كمعجمات المعاني والذخيرة اللغوية.
- رصد ألفاظ الحياة العامة ووضع مصطلحاتها وإشاعتها.
- تيسير تعليم اللغة العربية وتعلمها.
- متابعة لغة الصحافة والإعلام وتقويم الأغلط المتأصلة فيها.
- العناية بتحقيق التراث العلمي ضمن محور تحقيق التراث والإفادة منه في وضع منهجيات وضع المصطلح.
- الإفادة من تطبيقات المعلوماتية في جميع محاور العمل.

(1) الدكتور عبد الله واثق شهيد: تقرير عام شامل حول أعمال المجمع السنوية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٧٩، الصفحات ٦٤٧-٦٦٦.

وكان المجمع قد شرع في تنفيذ برامج في المحاور الأول والثالث والخامس والسابع، كما شرع يعمل على وضع برامج لتنفيذ مشروعات في المحور الثاني، أهم محاور العمل في المجمع وأبعدها مدى وأشدّها تأثيراً في تطويره.

إن بيئة طفرةٍ جديدةٍ في تجربة سورية في تعريب التعليم العالي أخذت ترسم في المجمع وفي التعليم العالي، ومنه بخاصة في المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا، وإني لأمل أن أكون قد وفقت في عرض خطوطها الكبرى في الصفحات الأخيرة من هذه الدراسة.